تجليات الوطن في ديوان مملكة اليمام للمتوكل طه

خميس أحمد محمد ريان

وزارة التربية والتعليم- رام الله- فلسطين
أستاذ مساعد غير متفرغ- جامعة بير زيت- فلسطين
khrayyan69@gmail.com

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى عرض قضايا الوطن التي عبّر عنها الشاعر في ديوانه؛ لمعرفة إلى أي مدى مازال الوطن يشكل الهمّ الأول، والشغل الشاغل في الخطاب الشعري الفلسطيني في ظلّ التغيّرات التي عصفت بالعالم، وألقت بظلالها على القضية الفلسطينية.

واعتمد البحث تلقي النصّ الشعري وتحليله، مفيداً من المنهج الوصفي التحليلي الذي يقرأ التّصوص ويحلّله، ويفيد البحث من مناهج تحليل الخطاب وتقنياتها كالتمّناص، والاستحضار، والسّيمائية في الرّبط بين العنوان والموضوعات المطروقة. وقد سبر الشاعر النّفس الفلسطينية من خلال تنقله في خطابه بين قضايا الوطن المتعدّدة وهي: القدس، واللجوء، والنّزوح، والشّهادة، وغزّة التي تعرضت لحروب إبادة خلال سنوات قليلة مضت، فشكّلت بذلك جرحاً نازقاً مؤلماً في جسد الوطن. وقد خلصت الدّراسة إلى أنّ هناك ربطاً محكماً بين العنوان الذي شكّل شيفرة الولوج إلى موضوعات الدّيون، وإلى أنّ الوطن ما زال يشكل الشغل الشاغل في الخطاب الشعري الفلسطيني، وأنّ الشاعر وظّف تقنيات أسلوبية فجّرت دوالّ نقلها بقصدية لتلقيه لدفعه إلى المشاركة الوجدانية، والعملية في الذود عن وطنه ومكوّناته.

الكلمات المفتاحية: تجليات الوطن؛ القدس؛ اللجوء؛ الشّهادة؛ التّناص.

المقدمة:

منذ أن وطئ المحتل أرض فلسطين، والأدباء الفلسطينيين يقومون بدورهم المنوط بهم، وهو المقاومة بالكلمة جنباً إلى جنب مع السّلاح، وهذا الدّور جعل هؤلاء الأدباء في مواجهة مفتوحة معه، فذاقوا ما تجرّعه أهلهم من سجن ونفي وتعذيب. والمتوكل طه يحمل على عاتقه مسؤولية المشاركة في هذا الميدان، وقد جمع دورين معاً، حيث كان واحداً ممّن ناضلوا بأنفسهم في الميدان؛ فتعرّضوا للسّجن في الانتفاضة الأولى، ومن جهة أخرى هو منذ اللحظة الإبداعية الأولى إلى اليوم يحمل همّ وطنه فيكتب فيه شعراً يلامس العقل والوجدان، ويستنهض الهمم للمّ شمل ما تبقى من الوطن، فقد صدح شعره في ميادين شتّى لينصبّ على الوطن وآلامه: تعبير عن ألم، وحنين، وبكاء، واستنهاض الهمم، والدّعوة لإعادة الحقوق المسلوبة. ويعدّ ديوانه "مملكة اليمام"، واحداً من الدّواوين التي جمعت الألم والأمل، وحمل في طياته حزناً وأسى لا ينقطعان. إذ إنّ المتلقي لديوانه "مملكة اليمام" المنشور عام ٢٠١٥ يلاحظ كيف أنّ الشاعر قد أطلّ على هذه المملكة فوجدها ملأى بجراحات شتّى، فأسبغ عليها اسماً يتلاءم وحجم المآسي والآلام التي ما زالت تفتّ في العضد؛ لذا أسماها "مملكة اليمام" مستوحياً من أسطورة اليمام دلالاتها.

ويثير عنوان البحث "تجليات الوطن في ديوان مملكة اليمام" الذي اختير لقراءة ديوان الشاعر جملة من التّساؤلات التي تتجلى من خلال التّدقيق في تحليل القصائد، وعرضها، وأبرز هذه التّساؤلات:
أولاً: هل هناك تقاطع واضح بين عنوان الدّيون، وقصائده؟
ثانياً: هل ما يزال الوطن يشكل القضية المركزيّة لدى الشاعر الفلسطيني؟
ثالثاً: كيف يتجلى الوطن بالنسبة لأيّ ابن من أبنائه؟

رابعاً: ما القضايا التي شكّلت في مجموعها مملكة اليمام التي اختارها الشاعر عنواناً لديوانه؟

خامساً: هل استطاع الشاعر توظيف البعدين: الديني، والقومي، لاستنهاض الهمم؟

سادساً: كيف تمكّن الشاعر من نقل ما يعتل به صدره لغيره داخل الوطن وخارجه؟

ويهدف البحث إلى الإجابة عن هذه التساؤلات السابقة من خلال إبراز تجليات الوطن في الديوان، وتتبع موقف الشاعر من قضاياها في وقت يتعرّض فيه الوطن ككلّ إلى التهويد، ومحاولة طمس الوجود الفلسطيني عليه، أملاً في توجيه بوصلة الخطاب؛ ليتعاضد الكلّ الفلسطيني في مواجهة المحتل الغاصب، ويستثير همم إخوانه العرب والمسلمين لموازنة قضيتهم المركزية. ويعرض البحث الفضاء الموضوعي، وما يجلبه من عناصر وتقنيات فنية، تنقله من المبدع إلى المتلقي، أملاً في التأثير فيه، وحمله على المشاركة بصورها المتعددة في إثبات الوجود على الوطن، والدفاع عنه.

وتشمل القراءة للديوان جملة من القضايا المرتبطة بعنوان البحث، حيث جاءت من خلال تمهيد، وأربعة عناوين: عرض التمهيد إلى سيمياء العنوان وشيفرته الوطنية، كونه شيفرة توحى بالمضمون وتجلبه، أما الموضوعات الأربعة، فقد جاء الأول تحت عنوان: القدس قضية الشاعر الأولى، والثاني: بين اللجوء والتّروح وأمل العودة، والثالث: عرس الشهادة تجسيد للمأساة وبعث من جديد، والرابع: غزّة بين التطهير العرقي والمقاومة. وكلّها ترتبط بالوطن ارتباطاً عضوياً، وهي مجتمعة معاً تشكّل الوطن الذي دلّ عليه بمملكة اليمام.

ويقوم البحث على تلقّي النصّ الشعري، وتحليله، مفيداً من مناهج الدّراسة النصّية اللسانية في جوانب كاللّغز مثلاً، تلك الجوانب التي تجلّي قراءة النصّ، وتكشف دواله.

وتعدّ هذه القراءة القراءة البكر للديوان، غير أنّ بعض الدارسين عرضوا للمتوكل طه في قراءات مختلفة، تناولت دواوين سابقة من مثل قراءة الدكتور عادل أبو عمّشة الموسومة بـ "دراسة في شعر المتوكل طه"، حيث وقف على الدواوين المنشورة قبل عام ١٩٩٤، وهي قراءة سريعة (أبو عمّشة، ١٩٩٥)، وقراءة عبد المجيد حامد المعنونة بـ "أعشاب القيد والقصيدة" التي ناقشت جوانب موضوعية وفنية في شعره قبل عام ٢٠٠٣، (حامد، ٢٠٠٣)، وقراءة فدوى عودة: "الشاعر الفلسطيني المتوكل طه نزال"، حيث ركّزت على جانبين وهما أدب السّجون، وموقفه من عملية التسوية (عودة، ٢٠١٣) ...، لكنّ هذا الديوان لم يحظ بقراءة سابقة من هذا القبيل فيما أعلم فهو حديث النّشر، يسرّ أعماق الواقع ويجلبه، فالوقوف عنده يعكس ديمومة قيام الشاعر الفلسطيني بدوره في الدّفاع عن الحقّ أمام الهجمة المسعورة التي ينتهجها المحتلّ.

التمهيد: سيمياء العنوان وشيفرته الوطنية

العنوان هو أوّل ما يقابل المتلقي، وهو يحمل وظائف متعدّدة، أبرزها أربع وظائف وضعها جيرار جينيت، وهي الوظيفة التعيينية، والوصفية، والإيحائية، والإغرائية، التي تغري المتلقي بقراءته، ولعلّ أهمّها الإيحاء الذي يفتح آفاقاً إبداعية ونقدية واسعة. (أشبهون، ٢٠١١)

ويمتاز العنوان بعلاقة عضوية مع النصّ الذي يمثله حيث إنّ جزء لا يتجزأ من القيمة الإبداعية المتكاملة للنصّ، وبات يشكل علاقة سيميائية لا تقل أهمية عن العلاقات السيميائية في المتن؛ لذا لا بدّ أن يراعي المتلقي وظيفة العنوان في تشكيل اللغة، والبوح بمدلولات النصّ. (كلاّب، ٢٠١٧)

وبالعودة إلى عنوان ديوان الشاعر "مملكة اليمام"، فقد وفق الشاعر في اختياره؛ ليعبر عن مقصده، وهي الكشف عن مشاعره وأحاسيسه تجاه كلّ مكونات وطنه، إذ إنّ هذا العنوان يظهر تقاطعاً واضحاً مع الفضاء الموضوعي للديوان بشكل عام، فهو مكوّن من كلمتين هما: (مملكة) مضافة إلى (اليمام)، حيث تحمّلان أبعاداً دلالية عميقة، فكلمة مملكة تتيح للمتلقي أن يفكر في عراقية المكان، وسعته، وامتداده، الذي يعني امتداد الآلام والأحزان، وآساعها، وعند إضافتها لليمام، فإنّها تستفز المتلقي لتدفعه إلى المشاركة النفسية، والوجدانية التي يقصدها المبدع، وبهاتين الكلمتين يختزل المتوكل طه هذا الوطن بما حلّ فيه من الحزن، والأسى، حيث يبدو الوطن مملكة واسعة، لكنّه مملكة لليمام الذي فقد هديله، وما يزال يندبه ألماً، وحسرة، وأسى. وهذا ما يبدو في جلّ موضوعات الديوان، وهي: قضية القدس التي ما فتئ المسلمون والعرب عامّة، والفلسطينيون خاصّة يجعلونها قضيتهم الأولى، وثمة قضية اللجوء والتّروح بأبعادها المتشعبة، إذ هي جرح نازف في سلسلة الآلام، وتتجلّى قضية الشّهداء التي ترتبط بكينونة الفلسطيني على هذه الأرض، فهؤلاء يرتقون من أجل بقاء الآخرين، بدءاً بمن ارتقى منذ وجود اليهود على هذه الأرض كعبد الرحيم محمود، وانتهاء بمن ارتقوا دفاعاً عمّا تبقى من مملكة اليمام كزياد أبو عين، وتظهر غزّة في بؤرة مملكة الأحزان كونها جرحاً نازفاً يتعرّض بين الفينة والأخرى إلى حروب أبديّة في بعضها عائلات من السّجلات، وكونها جزءاً رئيساً من الوطن تنعكس أحزانه على الكلّ الفلسطيني أنّى كان.

وبهذا يكون العنوان (مملكة اليمام) الشيفرة الأولى التي تثير في المتلقي مشاعر شتى من الحزن والألم والأسى؛ لما تحمله هاتان الكلمتان من دوال مثيرة، وإحياءات عميقة لاسيما لأولئك الذين يعيشون مآسي الوطن، وقد شكّل عبء مهمة تنقلنا إلى القصائد المتنوعة التي عرضها الشاعر في ديوانه، التي شكّلت بمجموعها عناصر مهمة في مملكته المثلثة بـ"مملكة اليمام". ويكون العنوان بهذا مرتبطاً بكل قصائد الديوان لا سيما تلك التي عرضت للوطن، موضوع الدراسة ارتباطاً وثيقاً.

أولاً: القدس قضية الشاعر الأولى

تكتسب القدس أهمية دينية خاصة؛ لذا كانت محط أنظار العابرين يحجّ إليها المؤمنون من أصقاع المعمورة، ولها أهمية خاصة عند المسلمين؛ لما لها من ارتباط وثيق بالعقيدة الإسلامية، وكونها أرضاً مباركة لقوله تعالى: "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ". (سورة الإسراء: ١) ولهذه الأهمية فقد أسري بالرسول محمد عليه السلام إليها، ومنها عرج به إلى السماء، ودأب الخلف على إكسابها نوعاً من الهالة والقدسية، حيث جاءها عمر مهرولاً ومسرّعاً بعد أن أصرّ صفرونيوس على تسليمه مفاتيحها، وفي ذلك إشارة لأهمية القدس للمسيحيين والمسلمين، وكتب العهدية العمرية التي تحفظ الحقوق لسكانها. (شراب، ١٩٩٥)

وفي الشعر بكاها الشعراء كلّمًا وقعت تحت احتلال، ودعوا إلى تخليصها من براثنه، فهذا العماد الأصفهاني يقول: (عبد المهدي، ١٩٨٩)

أَوْمًا وَعَدَتِ الْقُدْسُ أَنَّكَ مَنْجُزٌ مِيعَادُهُ فَيَفْتَحُهُ وَظَهْرُهُ

فمَتَى تَجِيْرُ الْقُدْسَ مِنْ دَنَسِ الْعِدَا وَتُقَدِّسَ الرَّحْمَنَ فِي تَطْهِيرِهِ

وتغنى الشعراء بالفتح وتراقصوا طرباً على أنغام تحريرها، فالعماد الأصفهاني يقول: (عبد المهدي، ١٩٨٩)

وَكُمُ لِبَنِي صَالِحِ الدِّينِ فِينَا عَلَى الْإِسْلَامِ مَنْ حَقَّ تَأْكُودُ

وَأَنَّ لَهُمْ عَلَى الْأُمَلَاكِ طُورًا بِفَتْحِ الْقُدْسِ فَضْلاً لَيْسَ يَجْحَدُ

ولمّا حلت الطامة الكبرى بالقدس في هذا الزمان، واستبيحت الحرمات، وحلت بها التكبّات، هبّ الشعراء منافحين بالكلمة، أمام غطرسة عدوّ يحاول تهويدها، ويغيّر على الأرض ما يسليها من تاريخها وعراقتها، فكان العبء على الشعراء أكثر، والمهمة أشقّ. وقد وهب الشعراء الفلسطينيين القدس أجمل درهم، ومنحوها أبلغ قصائدهم، والمتوكل طه واحد من هؤلاء إذ منح القدس في مملكة اليمام جملة من القصائد سبر فيها غور مأساتها، وحدّد فيها موقف الفلسطيني من قضيته المركزية كما يعيشها واقعاً، وأبرز القصائد التي تجلّت فيها قضية القدس هي: مريم تفرش رداءها للرسول، والقدس في قرطبة، ووجه القدس، والقدس اسم عاشقة، ومركبة في القدس، إضافة إلى الإشارة إليها في قصائد أخرى من مثل مدن العودة. وتكاد كلّ قصيدة تحمل عبر إحيائها تحمل تيمة جديدة ترتبط بالقدس، وينقلها المبدع إلى متلقيه؛ ليتفاعل معها.

فقصيدة "مريم تفرش رداءها للرسول" تُبدّد الوهم الذي قام عليه هذا الاحتلال، وهو أنّ القدس حقّ دينيّ مقدّس لليهود، ويرفض الشاعر ذلك موظفاً كلّ طاقاته الإبداعية. بدءاً بالعنوان الذي يركّز على الهالة المقدّسة الممنوحة للقدس؛ فالعنوان شيفرة النصّ لأنّه أحد المفاتيح الإجرائية التي تسهم في توجيه المتلقي إلى قراءة النصّ من خلال ما يمنحه من صورة استباقية عن المتن، وشحنة دلالية مكثّفة تدفعه إلى البحث عن جماليات المتن. (واصل، ٢٠١٠)

يعكس العنوان العلاقة الوشائجية التي تولّدت في المكان (القدس خاصة) وفلسطين عامة، بين الفلسطينيين: مسلمين ومسيحيين؛ ولذا استنطق الشاعر المكان في القدس، واستحضر الزمان عبر استحضاره الشخصية التاريخية مريم، والرسول الكريم عليهما السلام، وشخصيات أخرى.

يفتتح الشاعر قصيدته_افتتاحية الديوان_ بنفيه القاطع لحقّ اليهودي في القدس، رافضاً ما يفرضه المحتلّ فيها من تغييرات على الأرض لإثبات تاريخ مزيف لهم على الأرض بقوله:

للسّور ظلّ لا يراه الزّاكبون

فربّما ظلّوا خيال مواكب الإسفلت

ما يعطي الشوارع لونها
 ويهرولون على امتداد سطوحها
 ويعلمون مفارق الطرقات بالوهم الخفيف
 ويكتبون على الحجارة ما يؤكد رحلة الصحراء
 أو أهواء بعض المدّعين
 بأنّ موسى جاء ممتطياً جواداً ...
 كي يسلم وعده للهاربين
 من الجبابرة الرعاة على السّواحل. (طه، ٢٠١٥)

فإذا كان وعد الرّب لموسى في دخول هذه الأرض، فإنّ كل الأنبياء دخلوا القدس، وصلّوا فيها دون أن يدّعي أتباعهم حقّهم فيها، انظر إليه يقول:

والأنبياء من الهدير إلى الغدير
 تواثبوا
 حتّى يجيئوا أورسالم
 والذي عبر المدينة كان منّا. (طه، ٢٠١٥)
 وينقل الشّاعر المتلقي إلى مقصديّته بقوله:
 ويعي من رمل الجزيرة
 من يبشّر بالخلاص
 ويمنح البشر الطريق إلى الموازين
 التي غابت
 ويبدأ عهده بعدالة لم يعرفوها
 أو يبدل ليلهم بنهارهم
 ويقودهم لكرامة هدرت طويلاً
 في العماء. (طه، ٢٠١٥)

فالقدس إذن بهذا العدل الإلهي تسمي مظلة للجميع تحت حكم إسلامي عادل ، لا يُمنع فيها أحد من ممارسة طقوسه، فالكلّ فيها إخوة من أين جاؤوا عبر المكان والزّمان، في ظلّ رسالة العدل التي حلّت على أرضها:
 فهنا الأخوة في المكان أو الزّمان
 لكلّ من يأتي ويذهب
 دونما ستر ظلامي
 ويبدو خلفه السّاطور
 أو يخفي الأفاعي في الثّياب. (طه، ٢٠١٥)

وهنا يشير الشّاعر برمزيّة مكشوفة إلى الاحتلال الذي يشبه الأفقي في مكرها حيث تختفي خلف الثّياب، لتنفث السّم. ويفنّد الشّاعر ادّعاء المحتل بسبره غور الماضي إذ يستحضر شخصيّة موسى ويوشع، فموسى عليه السّلام عند اليهود من وُعد بدخول هذه الأرض ليخلّصها من القوم الجّبارين لتصفو لهم، ولكن الشّاعر في نصّه ينفي ذلك؛ فموسى عليه السّلام لم يدخل مدينة القدس، وهو هنا يتقاطع والنّص القرآني والحقيقة التاريخيّة، أمّا يوشع فقد جاء البلاد غازياً كما يرى الشّاعر، حيث يقول:

ولم يكن موسى هنا
 وأتى يوشع غازياً. (طه، ٢٠١٥)

فالاستحضار هنا جاء لينتج دلالة جديدة تتوافق ورؤية الشّاعر؛ وذلك لأنّ الخطاب المستمدّ من التاريخ يعكس فردية تظهر عبر تدخّلات الشّاعر من خلال تعيين موقفه الشّخصي تجاهه. (مفتاح، ١٩٨٥)

فالشّاعر هنا يعبر عن موقفه ممثلاً للمجموع. وما يلفت التّ نظر هنا أنّ الشّاعر في استحضاره لشخصيّة يوشع وكأنّه يستحضر معه كلّ ما يتخلّله المتلقي من قسوة واعتداء، وقتل، وتخريب، وعنجهيّة، فيوشع كما هو معلوم تاريخياً وفي العهد القديم. دخل فلسطين بالقوّة وقتل الملوك، فأصبح رمزا للبطش والقوّة، وباستحضاره يكون الشّاعر قد عبّر عن كلّ هذه الدوال، حيث ظلّت

شخصيته مادة خصبة يستمد منها الشعراء الفلسطينيون دواهم. (الشعر، ٢٠١٢)؛ ولذلك تتجلى ذات الشاعر بعد هذا الاستحضار، تلك الذات التي تمثل الهمّ الجمعي الفلسطيني، والقومي، والديني.

وأنا وريث رسائل الوحي الوحيد

فلا جدال ولا نقاش على السلام

على المدينة

والسلام لها ولي

ولمريم العذراء

تفرش للرّسول رداءها

وعلى خيوط رداها بعض الدّماء. (طه، ٢٠١٥)

أمّا قصيدة "القدس في قرطبة" فتقوم على المفارقة بين ماضي عريق متميّز، وحاضر مؤلم ومزري حيث يبدو الشاعر في هذه القصيدة هائماً بحبّ المدينة، معجباً بها وبتألقها عبر التاريخ، في أمّ المدائن، ويأتي استحضار المكان (قرطبة) في هذه القصيدة حاملاً دلالة مهمة، إذ كانت قرطبة منارة العلم ودرة الزّمان، ويظهر الإعجاب بالجمال والبهاء والتميّز الذي تحظى به مدينة القدس كأنّها بنيت بأيدٍ غير إنسيّة حيث يقول الشاعر:

تقول كأنّ الذي قد أقام المعابد

والواجهات وأقواسها العاليات

وأدراجها كسلا للطريق

هو الجان! (طه، ٢٠١٥)

ولكن كيف أمست قرطبة التي هي القدس الآن؟

فكيف ترى وجه قرطبة الآن؟

وكيف بالآلها تكذبان؟ (طه، ٢٠١٥)

ويمنح الشاعر -كما يبدو- نصّه سلطة تأثيريّة قويّة من خلال التّناص مع النّص القرآني: "فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" (سورة الرحمن: ١٣)، فثمة سلطة قويّة للدين في النّفوس. حيث تبدو القدس في حالة من التّقدّيس والتّبجيل من خلال الآلهة التي ينبغي ألاّ يكذب بها أحد، في إشارة إلى تميّزها من جهة، وإعجاب الشاعر وانهاره بالآلهة الباهرة.

ويعقد الشاعر على دأب كثير من الشعراء الفلسطينيين مقارنة بين القدس وقرطبة، أو قل بين فلسطين والأندلس، ولعلّ هذه المقاربة في النّص تحمل دلالة مزدوجة، الأولى: هناك حضارة رائعة كانت في قرطبة، وفي القدس حضارة مماثلة، والثانية: ثمة مشاركة في إنشاءها، فالملاح المميّزة للقدس بدرتها: قبة الصّخرة، والمسجد الأقصى في بنائهما الحديث، هو من صنيع الأمويين، وكذلك الحضارة التي نعمت بها قرطبة كانت تصميمًا للأمويين، أصحاب الحضارة الأندلسيّة:

والنّور أندلس الأمويّ، الذي

حلّ في ذهب الأقحوان

وكان ما كان. (طه، ٢٠١٥)

ومرة أخرى نقلنا الشاعر عبر شخصياته إلى الوراء؛ ليبني علاقة جدلية بين ماضي مشرق، وحاضر مؤلم، فالشخصيات المستحضرة في القصيدة هي تلك التي بنت حضارة الأندلس لاسيّما قرطبة التي تألقت بجامعها، وعلمها وعلمائها في الميادين شتى، فهذا ابن زيدون، وتلك ولادة في أدهما، وذلك ابن حزم إمام العاشقين بعلمه وعشقه، وهذا زرياب بفنّه، وذلك ابن فرناس بإبداعه، وغيرهم كثير.

ويرى أبو عمّشة أنّ المتوكل طه استحضر كثيرا من الشّخصيّات الأندلسيّة، إذ كان لها حضور بارز في دواوينه قبل عام ١٩٩٤ من مثل: طارق بن زياد، وموسى بن ميمون، وابن طفيل، وغيرهم، ويفسّر هذا الحضور بقوله: "استحضر هذه الشّخصيات ليبرز من خلالها احتجاجه على مدريد." (أبوعمشة، ١٩٩٥) غير أنّ الاستحضار في هذا الديوان كما أرى حمل إيحاء جديداً يتساق مع مدلولات الديوان، إذ فيه إشارة إلى المكانة والتميّز الذي كانت تعيشه كلّ من القدس وقرطبة، وهذه الشّخصيات المستحضرة، لها دور كبير في إبراز هذا التميّز؛ لما كان لها من دور في بناء حضارة الأندلس.

ولكن كيف أصبحت القدس الآن، تلك المنارة التي تحطّمت على صخرتها جيوش المعتدين؟ إنّها أمست كقرطبة:

والقدس مثل قرطبة
 نصف غائبة حاضرة ...
 فكوني يا قرطبة بكامل زينتك
 ليأخذك القشتال إلى السكين
 هنا المدن الضائعة على مدّ الخريطة
 فهل سيحيي الشاعر بعد قرون أخرى
 ليرى في قرطبة القدس؟ (طه، ٢٠١٥)
 نعم عاد القشتال بقناع آخر:
 إلى أن يحرقها الحقد في الداهمين
 سلاماً، إذا، للتماثيل والعنب الذهبي
 على باب إقباء في الأولين
 وفي الآخرين
 وشكراً... لأيامنا في السنين. (طه، ٢٠١٥)

أمّا قصيدة " للقدس وجه آخر"، فقد بدت فيها القدس بوجه مشرق جديد، حيث الحياة النشطة فيها، ويستشرف الشاعر المستقبل الذي يرنو إليه مع القدس، وهو عودة المآذن لصوتها النقي:
 للقدس وجه آخر
 يعطي للمآذن صوتها. (طه، ٢٠١٥)
 وهكذا يريدونها كما يصبو لها الكلّ الفلسطيني، يتعاضد فيها محمد والمسيح، ويعيش الناس بأمن وأمان دون تمييز:
 وقد أسلم باليدين وبالعيون على النبي المصطفى
 صلّوا عليه

وربما ألقى المسيح.
 فعندها سيعيد لي ولدي
 ويبرئ صدره من صلية القنّاص
 أو ألقى الطهورة مريم العذراء
 تمشي في الطريق! (طه، ٢٠١٥)

والشاعر الذي افتتح ديوانه بنفي الحقّ اليهودي في القدس، لم يشر في قصيدته هذه التي يستشرف فيها المستقبل كما يريد هو إلى أي وجود لليهود؛ لذا لم يلتفت إلى الماضي اليهودي، ولم يستحضر التاريخ اليهودي أو الشخصيات ذات الصبغة اليهودية كما فعل فيما يخصّ المسلم، والمسيحي، حيث استحضر المصطفى، وعيسى، ومريم عليهم السلام؛ ليوحي بذلك بأنّه لا حقّ لليهود في القدس كما يدّعون، بل لا يريدونهم في القدس في مستقبلها الزاهر.
 والقدس تبدو في استشرافه خاتم العرس، ومنديل الزفاف، ورقصة الجمرات في ذهب القصائد، وهي بذلك القضية الأهم في منظومة الجرح، تستحقّ أن يقاتل من أجلها لأنّ العودة قادمة كنتيجة حتمية للقتال الذي يقوم به اللاجئ:

والقدس خاتم عرسنا الأبدي
 منديل الزفاف
 ورقصة الجمرات في ذهب القلائد
 ونشيدنا بمسيرة المفتاح
 هاجر ثمّ قاتل..
 فهو عائد

والقدس من وجع القصائد. (طه، ٢٠١٥)

وفي قصيدة "القدس اسم عاشقة"، يعبر الشاعر عن مدى حبّه وعشقه لهذه المعشوقة العاشقة، التي تعشق أن ترى قومها وقد اتحدوا، وتناسوا كلّ أحقاد الماضي؛ ولذا يستنهض الشاعر الهمم، حاثاً على الوحدة، وتناسي كلّ أحقاد الماضي والتاريخ العربي المزعج، وفي ذلك يقول:

ووحدي الأهل، كاد الضد يقتلني
 هذا كليب وهذي أخت جساس. (طه، ٢٠١٥)
 وقد جاءت القصيدة تعج بالتناص التاريخي، شخصيات، وأماكن، وأحداث. ذلك التناص الذي يعكس واقع العروبة عبر
 التاريخ ذلك الضد الذي لا يريده الشاعر، وكاد أن يقتله: داحس، والغبراء، والبسوس، وكليب، وجساس، وصفين، ... (ينظر: طه،
 ٢٠١٥)

ويرى الشاعر أن قضية القدس مدعاة للوحدة، وللهوض بالأمّة ورأب صدعها، وتوحيد كلمتها؛ لذا تبدو القدس جنة
 عاشقة ومعشوقة للجميع: الشامي والمصري والعراقي والحجازي والفاسي:
 أنا الشامي والنيل الذي عرفوا
 وابن العراق وكلّ الخلق من ناسي ...
 أنا يبوس، وهذا اسم لعاشقة
 وجنة جمعت نايي وقداسي...
 فتحت بابي على العشاق فاجتمعوا
 حولي: الحجازي والنوبي والفاسي. (طه، ٢٠١٥)

ويستحضر الشاعر في دعوته أشقائه للوحدة (يبوس) الاسم المرتبط بعراقه القدس وعروبته، إذ إن هذا الاسم مدعاة
 لوحدهم لأنّه ينقلهم إلى جذورهم العربيّة الأولى التي تمتد إلى البيوسيين(الكنعانيين) العرب، وهو يرفض ومنذ دواوينه الأولى أي اسم
 محرّف ينزع القدس من محرابها الديني والعروبي؛ لذا تجده يقول:

ويذبني قولهم "أورشليم"
 كأنّ يبوس خرافات أسفارنا الزائفة
 وينكرني الثأر يا أمنا القدس. (طه، ١٩٩٢)
 ولأجل هذا العشق لمعشوقته القدس التي تعشق الكلّ، يعزّ عليه أن تبقى أسيرة باكية:
 إنّي أحبك يا قدس البلاد هوى
 يفوق دفقة أضلاعي وإحساسي
 يعزّ يا قدس أن تبكي على كتفي
 والأنبياء على أعتاب نخّاس
 يعزّ، لكننا بالحقّ نرجعها
 قدسا تقول: هنا أهلي وحراسي. (طه، ٢٠١٥)

وتختزل قصيدة "مركبة في القدس" جلّ الجرائم التي يرتكبها الاحتلال ضدها، وضدّ قاطنينا من هدم، وتهجير، وقتل، وسجن، وتهويد:
 سلاما لكلّ البيوت التي أغلقوها
 وكلّ الجوامع. (طه، ٢٠١٥)

ويقول في موضع آخر:

والعدسات تعيد المشاهد
 خمسين مفردة للجناز
 والقتل
 والحرق
 والقلع
 والهدم
 والدّهْم
 والسّجن
 والمهلكات...؟ (طه، ٢٠١٥)

إذن كيف الخلاص؟ في لفظة ذكية تنقلنا عبر التاريخ إلى مدينة "سرّ من رأى" التي بناها المعتصم، يدرك المتلقي إيحائية الشاعر من خلال ذلك الحدث التاريخي حيث المرأة التي استصرخت المعتصم فهبّ لها في جيش حرّرها، وأعاد للإسلام عزّته. ولكن مع القدس اليوم هناك ضديّة واضحة، فالمعتصم اليوم عاجز، إذن من سيعيد للقدس السّلام والأمان؟ إنّها تلك المرأة التي استصرخت، المقدسيّة المربطة الشّامخة:

وسرّ التي رأها هباء!
ويعلم أنّ التي صرخت سوف
تحكي المآذن والسّور
والنّاس والباب والأنبياء
ويعلم أنّ التي صرخت وحدها..
من يعيد البراق... ليسري حرّا
إلى إيلياء
سلاما إلى القدس،
غصنا وطيرا،
ودارا وقوسا،
وشرفة ورد لعصفورة النّار
إن خرجت للغناء. (طه، ٢٠١٥)

وكأنّ الشاعر يضرب بعصا سحرية، ويعيش زمانًا آتيا لا محالة؛ فهذه المقدسيّة التي استصرخت مرارًا تقف شامخة سدّا منيعًا أمام غطرسة المحتل؛ فتجبره على إزالة كلّ جديد يمسّ كرامة المسلم عندما يدخل الأقصى من بوابات إلكترونيّة وكاميرات تصوير... وكأنّ نبوءة الشاعر بدأت تتحقّق في رؤيته لدور المرأة المقدسيّة في الحفاظ على القدس ومقدساتها. ويستشرف الشاعر ثورة عارمة تقوم بها مدن فلسطين تشدّ الواحدة منها عضد الأخرى للوصول إلى بدر التّمام، وعودة النّور ورحيل الليل إلى عتمة الغابرين. ويخلص الشاعر إلى أمل سيتحقّق:

تكتب اليوم
أجمل ما سوف نقرأ،
يا قدس:
حيفا لها المبتدا في الرّجوع
ويافا لها خبر العائدين. (طه، ٢٠١٥)

وعلى الرّغم من الواقع المؤلم للقدس خاصّة وفلسطين عامّة، فإنّ الشّاعر في جلّ قصائده عن القدس يربطها بمدّها الإسلامي والعربي الذي يشكّل مصدر قوّة أمام غطرسة الاحتلال وقسوته؛ لذا ربطها بالعقيدة، وبالتّاريخ الإسلامي، والعربي العريق والمشرق، ويركّز فيها على وحدة الشّعب بكلّ مكوّناته؛ وذلك دعما له في صموده في المواجهة، والعودة إلى العزّة المفقودة اليوم.

ثانياً: بين اللجوء والنّزوح وأمل العودة

اللجوء، والنّزوح، والتّشريد، وحقّ العودة، مصطلحات غرست في الذاكرة الفلسطينيّة في مراحل القضية المتعدّدة، فمنذ أن اغتصب الصّهاينة أرض فلسطين محتلين، وهم يستخدمون الوسائل المتعدّدة، والسّبل المتنوّعة في سلب الأرض، والضّغط على سكّانها لدفعهم نحو الرّحيل، وكانت الأداة الأولى التي وظّفها المحتلّ لحملهم على الخروج وسيلة التّجهيز القسري من خلال إرغام مئات الآلاف عام ١٩٤٨ على الرّحيل خارج الوطن، حيث أمسى أكثر من ستّة ملايين فلسطيني اليوم لاجئين في شتّى أنحاء المعمورة. ويعيش عدد منهم في مخيّمات الشتات التي ظلّت جرحاً نازقاً يفتّ في العضد الفلسطيني، واستخدم اليهود سياسة الهدم لتكون دافعاً للهجرة حيث أقدم في عام ١٩٤٨م على هدم ما يقرب من خمسمئة قرية، وفي عام ١٩٦٧م هدم قرى اللطرون الثلاث: بيت نوبا، ويالو، وعمواس، وهجر أهلها. (الدّباغ، ٢٠٠٣)

وقد واكب الشّعور الفلسطيني هذه القضية منذ حلول ليل الاحتلال الحالك، حيث عاش الشّعراء أحداث النكبة والنكسة أو عايشوها فهبّوا يصفونها، ويعكسون ما تعرّض له الشّعب الفلسطيني من آلام ومآسي بسببها، ومن هؤلاء الشّعراء هارون هاشم رشيد، ومعين بيسيسو، وغيرهم كثيرون. (قسم اللغة العربيّة، الأدب الفلسطيني، ٢٠١٠)، وخصّص بعضهم دواوين شعريّة حملت

مصطلحات اللجوء والتشريد كديوان "المشرد" للكريم، و"طائر الوحدات" لأحمد دحبور، فهذا عبد الكريم الكرمي مثلاً يقول في وصف اللاجئين: (أبو سلمي، ١٩٦٣)

فهنا الأيتام في أدمعهم وهنا تهوي الضحايا مثل شهب
وشيوخ حملوا أعوامهم مثقلات بشظايا كل خطب
هم ضحايا الظلم هل تعرفهم؟ إنهم أهلي على الدهر وصحي

وقد شغلت هذه القضية المتوكل طه في ديوان "مملكة اليمام"، إذ إن الشاعر يعزف أنغام الحزن والألم لكنه يبدو مستشرفاً حق العودة، وكأنه يتوق كاللاجئين جميعاً نحو العودة الميمونة إلى الأرض المحتلة. ومن القصائد التي عرضت هذه القضية: هجرة أمنة من بيتها إلى المخيم، ورحلوا، ومن شبك الطائفة، ويوم الأرض، ومدن العودة.

ففي قصيدة "هجرة أمنة من بيتها إلى المخيم" يصف الشاعر بمشهد درامي نزوح أمنة من بيتها في قرية بيت نوبا^١، حيث طردوا من أرضهم عام ١٩٦٧م، ولكنهم بقوا على أمل العودة القريبة إليها بعد أن تهدأ الحرب، ولكن ماذا حصل؟

وعادوا ولكن إلى صفقات التجارة بالشهداء

وبالوهم يرسم خارطة من جديد

يمكن فيها الجراد..

ويعطي لمن يسرقون الدماء منازل

في الريح فوق العباد

عادوا ولكن إلى غيبة سوف تمتد

حتى نعيد الحروف إلى لغة الأرض

أو نترك الشمس غارقة في السواد. (طه، ٢٠١٥)

ويرسم الشاعر في هذا المشهد صورة مؤلمة لأمنة التي غادرت قريتها محملة بالأحزان والآلام:

ومن بيت نوبا عشاء

سيمشي الأب والأم بالدمع

والصبية الغامضون إلى جهة في الظلام...

والعدا يرقبون الجماعات في سيرها

نحو خيمتهم في القتام

وأمنة وحدها

مع عوائلها في الطريق

ولم تعرف الخوف إلا هنا...

ولكنها الآن في مهم الوقت

قد كبرت ألف عام. (طه، ٢٠١٥)

ثم يصف الشاعر العبور نحو الشرق عبر نهر الأردن، وهو عبور معاكس ومضاد لعبور العدو إلى البلاد المعروف تاريخياً، وفي هذا تفجير لجملة من الدوال التي تعكس الألم الشديد الذي يغمر قلب الشاعر الممثل للأنما الجمعية:

سيري على خشب طائش

واقفزي فوق موجاته الرافصات

أو جنحي فوق صفحته كالحمام

ولكن أمنة لا جناحين في صدرها

وهي خائفة مثلما يفعل العابرون. (طه، ٢٠١٥)

^١ قرية في قطاع اللطرون غرب القدس هُدمت مع شقيقتها يالو وعمواس عام ٦٧، ينظر: الدباغ، بلادنا فلسطين (في الديار اليابسة)، (٥٢٤/٤).

ومع أنّ مشهد الرحيل جسدياً ينتهي في عمون (الاسم القديم لعمان) دلالة على الأصالة والحضارة؛ إلا أنّ في هذا المكان يبدأ مشهد التيه في قراءة معاكسة للتاريخ؛ فالتيه كان عقوبة المحتلين، ولكنّه اليوم أسمى، وكأّنه عقوبة للراحلين النّازحين عن أرضهم:

وربة عمّون تفتح أزرارها

وردة للخيام

هنا ابتداء التيه قبل العواصف

أو قبل أن يشق اللوز

في العتبات وثمة موقدة في الخيام

يطول انتظارك. (طه، ٢٠١٥)

والشاعر لا يريد لفترة التيه أن تطول كثيراً؛ لذا يبدأ الحلم بالعودة للديار من المكان الذي بدأ فيه التيه، إذ يقول:

هنا ابتداء الحلم في بقعة النّازحين

وأمنة في المجاز تعود

إلى بيت نوبا وعمواس

حتى تراها المجرات

تأهية

في كوابيس

من حلموا بالسلام. (طه، ٢٠١٥)

وتأتي قصيدة "ارحلوا" مفعمة بالمعاني والدلالات، حيث اشتملت على الكثير ممّا أحدثته المحتلّ على أرض الواقع، ففي الوقت الذي يطالب فيه الشّاعر المحتل بالرحيل معتمدا أسلوب الأمر، يعكس حجم ما أحدثه من مآسٍ ومصائب متتابعة، إذ يقول:

فما الذي تريده يا صاحب الدّبابة المجترّة؟

وقد سرقت خبزنا وماءنا وعمرنا

ووردة المواقد المعطرة؟

فلترحلوا جميعكم من الجهات كلها. (طه، ٢٠١٥)

ويبرز الشّاعر سبب هذا الأمر حيث الحال السيئة المزرية التي آل إليها الفلسطيني بسبب الاحتلال وسياسة التّهجير التي يتّبعها في طرد الفلسطيني من دياره:

لأنّنا المنفيّ والحمال والشّحاذ

والتي تبيع لحمها.. لأنّها

ذبيحة الجزار والصّغار...

لأنّكم سحبتُم الضّفائر الشّقراء

والسمراء للفراش، عنوة،

ففاضت الدّماء من زهورها المخترّة.

ولترحلوا:

لأنّكم قتلتم الكلام واليمام والشّجر

لأنّ حرقة اللّجام كالشرر

لأنّها السّجون تخنق القمر.

لأنّنا الفقير والأجير والغفير...

فلترحلوا

لأنّها الأرامل الضّبياع

لأنّكم سرقتُم النّخاع

لأنّنا الخراف في حظائر الضّبياع. (طه، ٢٠١٥)

ولمّا كان هذا هو حجم المأساة التي حدثت بسبب الاحتلال والتّهجير والطرد، فإنّ الشّاعر يتوق نحو الانعتاق من المحتل بتأكيد الأمر له بالرحيل من خلال أداة الجزم اللام:

فلترحلوا

ولترحلوا

ولترحلوا. (طه، ٢٠١٥)

وقد وظّف اليهود وسائل عديدة لتّهجير النّاس وطردهم، ولعلّ الاستيلاء على الأرض ومصادرتها كانت من الطّرق الأكثر إيلافاً لدفع النّاس نحو الرّحيل، مع أنّها باءت بالفشل مع المواطن الفلسطيني الذي ظلّ متشبّثاً بالأرض بفرض وجوده على ما تبقى منها. ويأتي يوم الأرض في نهاية آذار لما فيه من رمزيّة. ليدعو الشّاعر من خلاله إلى التمسك بالأرض حتّى الرّمق الأخير، وقد وُلد هذا اليوم إصراراً، وإرادة، وتحدياً للمحتل، وقد اتّخذ الشّاعر رمزا للتجدّد والبعث بتوظيفه مظاهر فصل الرّبيع لا سيّما الحنون الذي يرمز للبعث من جديد، إذ يرمز الشّاعر في ذلك إلى العودة:

في آذار،

يعود الحنون،

ويلد الحجر التّبوي جدائله المائيّة:

وتكون تماثيل النثر على مدّ التّور... (طه، ٢٠١٥)

ويستشرف الشّاعر التّحرّز والتخلّص من الاحتلال بقوله:

ويوم الأرض تعجّ النّخلة العذراء

ويأتي الطّفل ليرفض جلجلة الصّلبان

ويكسر مطرقة الطّغيان

ويجعل درب الألم المرّ

مسارب للحبّق الرّيان. (طه، ٢٠١٥)

وحلم الأرض سيتحقّق في الزّمان والمكان على هذه الأرض:

ويوم الأرض

تعود لنا الأرض

من الرّأس إلى أمّ الرّشاش

ومن ساحلها إلى البحر الميّت

أعني البحر الحيّ...

تعود لنا الأرض فلسطين

ولا شيء سواها

الآن ويوم غد والأمس. (طه، ٢٠١٥)

ويختتم عرس التّحرير ليعلن خاتمة الشّهداء بقوله:

في يوم الأرض تعود الأرض

لتعلن خاتمة الشّهداء. (طه، ٢٠١٥)

ويطلّ الشّاعر علينا في قصيدته "من شبّاك الطّائرة" متسائلاً تسأول العارف عمّا آلت إليه حال السّكان، أين أمسوا؟

على غيمة من بياض شديد

ترى ما تريد

شاهداً فوق تل صغير...

هل ترى رحلوا؟

لا رسم ينبت أنّهم قد مضوا من هنا

ثمّ أين سيرحل سكّان هذي الرّؤى الحاضرة؟

ربّما هجّروا. (طه، ٢٠١٥)

ويبدو الجواب في تناص مع النّص القرآني في أحداث يوم القيامة وأثارها، وكأنّ قيامة هؤلاء القوم قد حلّت في مشهد رهيب بقوله:

من مشرق الشّمس حتى المغارب

قد حوّله الغربية

ساحرة من بلاد العجائب

في نظرة عابرة

حوّلتها إلى ساحة مقفرة

كالحة ناغرة

لاهية سافرة

ناعية مدبرة

اسمها المقبرة...

وتصحو على غربة المجزرة

وتبكي على عَشَّها القبرة. (طه، ٢٠١٥)

وقصيدة "مدن العودة" سمفونية حزينة، تبدأ بالألم، وتنتهي بالأمل في ثنائية عجيبة، ومفارقة ظاهرة بنى عليها الشاعر جلّ

قصائده التي عرض فيها لمأساة اللجوء والنزوح، حيث يقول:

سأبدأ

لكي قد بدأت قديما من الحزن

أو من غموض التزييف

وقلت لها جر

يا طفلة الموت كوني لنا

في الشروق كما نشتهي عودة للبلاد

وغنيت للها تفين

فكيف سأبدأ ثانية

والدخان دم ماطر في الغروب

المؤدي إلى القدس

أو يجمع القرية التي حرقوها

بحي مجزرة القاتلين؟ (طه، ٢٠١٥)

وتزخر القصيدة بمفردات مستوحاة من ذاكرة الزحيل لازمت الفلسطيني أينما حلّ كاللجوء، والنزوح، والشهادة،

والدماء. (ينظر: طه، ٢٠١٥).

ولما كان الصراع بين المحتل والفلسطيني على المكان، ظلّ له نكهة خاصّة لدى الشاعر الفلسطيني، فمنه ينطلق التحرير، من كلّ مكان

داخل الوطن:

يا قدس

حيفا لها المبتدا في الرجوع

وبافا لها خبر العائدين. (طه، ٢٠١٥)

يبدو من خلال القصائد التي تمّ عرضها، تلك التي تحدّثت عن اللجوء والنزوح أنّ الشاعر يقي على بصيص الأمل بالعودة

إلى الديار، ويصرّ على ذلك، ويشيد بالأخوة التي تمثّلت في احتضان اللاجئين، ومساندتهم ودعمهم.

ثالثاً: عرس الشهادة تجسيد للمأساة وبعث من جديد

عرس الشهادة عرس يبتّ مكامن الألم التي تعتمل القلوب، لكنّه في الوقت ذاته يبعث الأمل في عودة التحدي والمقاومة

للمحتل وصولاً إلى التخلص من الاحتلال، ذلك الحلم الذي ما زالت تحياه الأنا الشاعرة الممثلة للأنا الجمعية الفلسطينية.

وقد أكبر الشعراء شهداء فلسطين منذ أن بدأوا يرتقون ظلماً، ووصفوا لحظات استشهادهم، وبينوا رمزيّة ذلك، فهذا

طوقان يصف بملحمة جميلة لحظات تسابق الشهداء على حبل المشنقة في ثلاثيّة الشهداء (الثلاثاء الحمراء): (طوقان، ١٩٩٠)

لَمَّا تَعَرَّضَ نَجْمُكَ الْمُنْحَسِرُ
وَتَرْتَحَتْ بِعُورَى الْحَبَالِ رُؤُوسُ
نَسَاحِ الْأَذَانِ وَأَعْوَلِ النَّاقُوسِ
فَاللَّيْلِ أَكْدَرُ وَالنَّهَارِ عَبُوسُ

وجلَّ الشعراء الفلسطينيون أكبروا الشهيد، ورفعوا مكانته، وتغنوا به في شعرهم، والمتوكل طه واحد من هؤلاء، حيث صور الشهداء الذين ارتقوا من أجل القضية من مثل أبي جهاد، ويحيى عياش، وغيرهم، وعبر عن سيرة الغضب التي يحدثها استشهاد أي فلسطيني، وربط بين ما يحققه الشهيد في الدنيا والآخرة. (حامد، ٢٠٠٣) أما ديوانه "مملكة اليمام" فقد شمل مجموعة من القصائد التي بكت شهداء بعينهم في رمزية جمعية لكل الشهداء، ففي قصيدة "فعلت ما قلت"، وهي مراثية للشهيد عبد الرحيم محمود الذي قاوم بالكلمة والسلاح، وارتقى شهيداً في معركة الشجرة. ركز الشاعر على أهمية هذا الدور في مهمة تكاملية، تعكس الأثر الكبير على الشعب كافة، حيث يقول:

وقعت بالدم شعرا فاستجاب له
شعب شهيد بريح المسك يلقاه
فعلت ما قلت! هذا ما اجتاحت لنا
من معجزات، وذات الفعل حرفاه
موت الشهيد مجاز فالخلود له
واللحد إن ضمّه فالله أحياه
ولو أتاح لنا المولى الصلاة إلى
روح الشهيد لكننا قد عبدناه. (طه، ٢٠١٥)

يظهر في النص البعد الديني بشكل جليّ، فالشهادتيّة مجازاً، وهو خالد حقيقية، وتظهر المفردات الإسلامية التي تحمل أبعاداً دلالية عميقة، فمثلاً إن دال "عبدناه" الذي أنهى الشاعر به نصّه يمنح الشهيد هالة من القدسية والبركة، تدفع الآخرين على أن يحذوا حذوه في التوق نحوه الشهادة؛ لأنهم ينعمون بالحياة الأبدية الخالدة، حيث يصلون إلى حدّ القداسة التي يتاق للوصول إليها. وفي قصيدة بعنوان "أبونا الختار" يركز الشاعر على حالة الغدر التي مارسها الأخوة بحق هذا الختار، حيث يلجأ إلى القصص الديني مستمداً هذا الدالّ من قصّة غدر إخوة يوسف بأخيهم عندما ألقوه في البئر، وجاؤوا على قميصه بدم كذب:

أبونا له ألف يوسف في الأرض
قمصانهم في رماح الأشقاء
والذئب من خلفهم حارس للدعي. (طه، ٢٠١٥)

والختار يمثل كلّ الشهداء الذين تخلّى عنهم الأشقاء، ويؤكد الشاعر على قصّة هذه الخيانة للدماء الزكية التي تستمدّ نبليها من قداسة الأنبياء ومكانتهم المرموقة، فيلجأ للتاريخ ليستمدّ منه تلك العلاقة الوشائجية بين من دسّ السم وتخلّى عن الشهيد ممثلاً بالختار، وبين أولئك الخوارج والبرامكة، وغيرهم ممن حفل بهم التاريخ أمثلة للخيانة، والغدر، والتنگر للجميل:

إنما قد يعود الخوارج بيننا
والبرامكة العنكبوت
وببدأ مخطوطنا القرمزي. (طه، ٢٠١٥)

فهذه القصيدة مدعاة للوحدة، ونبذ الفرقة والخلاف، ولعلّ العودة إلى التاريخ، واستحضار الشخصيات التاريخية أكبر دافع للعرب عامة وللفلسطينيين خاصة للوحدة، والعمل على تخليص الوطن من براثن المحتلين.

وفي قصيدته "غرته سنبله" في رثاء زياد أبو عين الذي قضى منافحاً عن مصادرة الأرض بجسده العاري، يؤكد الشاعر على أنّ هؤلاء الشهداء يرتقون دون حقهم السليب؛ ولذلك فهم يستطيعون الموت في سبيل ذلك:

لن يتركوك تتمّم ما اجتراح الشهداء
وأخشى من العضّة النّادمة
فليقتلوني، إذًا دون حقّي،
ولا عيش للأنفس الرّاغمة. (طه، ٢٠١٥)

ويتذكر الشاعر ما عاناه الشهيد من المحتل، وهو ديدن جلّ الشهداء، حيث يتنقلون بين سجن، وجرح، وتعذيب، ليتوج ذلك كله بالشهادة:

كم مزة سوف يأخذك النأي
للسجن والجرح والغاز..

حتى انتباهة عينيك في برزخ الظلمة الداهمة؟ (طه، ٢٠١٥)

ويربط الشاعر بين الشهيد والأرض بكل أشياءها ومكوناتها؛ لأنّ الشهداء يرتقون من أجلها، ويختار من بين أشياءها تلك المفعمّة بالحياة، التي تدلّ على الوجود والتجدر في الأرض، وتشير إلى الاستمرارية في الحياة حتى بعد الشهادة، وتعكس خصوصية المكان ورمزيته:

تجلّيت يا صاحبي مثل زيتونة الحقل،
أو مثل ليمونة طبعوا على خدّها للعروس،
وأكملت زينتك، اليوم، فاخرج علينا
لنعرف أنّ البلاد لها عشقها المستحيل،
وأنّ لأعراسها الأخذة الحاسمة. (طه، ٢٠١٥)

يتبيّن من خلال عرض القصائد التي تتحدث عن الشهداء أنّ الشاعر يركّز في خطابه على الفلسطيني؛ لما له من تجربة يومية في إدراك وقع الشهادة وتداعياتها، فهو يعيشها واقعا يوميا، ويحسّ بأثارها عليه. ولكنّه في الوقت ذاته لا ينسى الإشارة للتاريخ؛ ليمنح نصوصه أبعادا دلالية أوسع، وأعمق.

رابعا: غزّة بين التطهير العرقي والمقاومة

ارتكب المحتل الإسرائيلي منذ أن حلّ على هذه الأرض الكثير من المجازر التي كانت نهجاً متبعاً في محاولة لتهجير السكّان، ودفعهم إلى الخضوع والاستكانة، ولم يترك المحتل شبراً من فلسطين إلا وأحدث فيه مجزرة. وفي الآونة الأخيرة بين ٢٠٠٨-٢٠١٤ تعرّضت غزّة إلى سلسلة حروب غاشمة متتالية أبيت فيها عائلات كاملة، وحلّ اليباب على بعض بيوتها العامرة فأُمسّت خراباً وبواراً؛ ممّا جعل ذلك مبرراً للشاعر ليدعو أهل غزّة للمقاومة، والدّفاع عن الذات بعد تخلي الكلّ عنهم:

وقاوم بمن مسحوا من سجّل الحياة،
ولم يبق فيهم صغير يخاف. (طه، ٢٠١٥)

يفتح الشاعر الأفق أمام المقاوم الفلسطيني للدّفاع عن الذات، والثّار لكلّ الجرائم التي ارتكبت ضده بكل الوسائل بدءاً بالأدوات البسيطة التي قرّضت على المحتل واقعا جديداً يحسب فيه ألف حساب للصّغير والكبير، والأدوات التي تطوّرت وأُمسّت أدوات تخويف، وردع تثير الرّعب في قلوب المحتلين:

وقاوم بأغنية الأرض والمولوتوف وزخّ الحجارة
قاوم بصاروخ فتح
وصاروخ جيم
وصاروخ قاف
وما من سماح
وما من شفاعة
وقاوم فقد جاء وقت السّباع،
وولّى زمان قطيع الخراف. (طه، ٢٠١٥)

وتبدو في هذا النّص تلك الدّعوة للوحدة الوطنيّة فيما يتعلق بموضوع المقاومة؛ ممّا يؤدي إلى استمراريّتها، وشدّة فعاليتها، وأثرها المرعب، إلى أن يتمّ عرس التحرّر والانعتاق من الاحتلال للأرض الفلسطينيّة كاملة:

وقاوم إلى أن تتمّم حيفا
مراسم أعراسها.. للزّفاف.
وقاوم إلى أن يعود اللجوء

إلى الأرجوان وزهر الضفاف. (طه، ٢٠١٥)

ويختزل الشاعر الحديث في قصيدة "غزة الله" عمق المأساة التي تعانيها غزة من حصار، ودمار، وحروب جائرة، ويستحضر تلك المجازر التي حلت بالفلسطينيين في لفظة لاستمرار المسلسل الدامي غير المتناهي، على اختلاف الزمان والمكان، مستحضراً مجازر تركت بصمات الكمد والأسى على مسيرة القضية الفلسطينية:

سلام على ماء قانا وصبرا
على ما تبعثر سطرا فسطرا
على خيمة في عراء الطحين.
سلام على داليات الصفيح

ودفق الجريح يشق الدروب إلى العائدين. (طه، ٢٠١٥)

ويبدو عمق المأساة التي يحدثها المحتل؛ لعدم وجود محرّكات تثنيه عن مجازره، فلا يسلم جامع، ولا مدرسة، ولا رضيع، ولا بيت صفيح يأوي لاجئاً مطروداً من بلده قبل سنين:

سلام على كل حي ودار
ومدرسة في الغبار،
على كل هذا المدى والحصار،
سلام على جامع هدموه
وميت من القصف قد أيقظوه
وسقف على أهله ردموه

وألف رضيع إذا لقوه. (طه، ٢٠١٥)

فلا الجامع بيت العبادة، ولا المدرسة بيت العلم بناج من جرائم المحتل.

ولمّا عبّر الشاعر عن حجم المأساة التي تحياها غزة اعتمد إيقاع النص القرآني لمنح النص هالة من القدسية، قدسية الدين؛ لما لذلك من تأثير على النفوس، ودعوة للمشاركة العاطفية. عبر الوطن من جنوبه إلى شماله:

فإن قصفوا رفحا في المساء..
صباحا، ترى روحها في جنين.
سلام على غزة الله
فيها الممات وفيها الحياة

وفيها سنحشرهم أجمعين. (طه، ٢٠١٥)

فالشاعر في منظومة قصائده الغزبية يظهر شدة الظلم الذي فجر المأساة، متمثلاً بالحروب الظالمة المتتالية التي شهها المحتل الغاصب على غزة. ومع ما يولد هذا من ألم إلا أن الأمل موجود من خلال الوحدة المتمثلة بوحدة المقاومين في الميدان، والوحدة الشعورية التي تزخر بها القلوب الفلسطينية عبر الوطن وامتداده، ولم يكن اختياره لغزة تجزئة للوطن بل جعل ما يحدث فيها مدعاة لوحدة الشعب في سائر الأماكن. ولعل اختياره لغزة أمر مهم؛ وذلك لما أصابها عبر السنوات الأخيرة، وليعبّر عن مشاعره المتمثلة بمشاعر كل فلسطيني يعيش على هذه الأرض، ويتوق لوحدة شطري الوطن، بعد أن لعب العدو دورا بارزا في محاولة لشرطه شطرين أو أكثر. وكأن الشأن الفلسطيني هو الأكثر أهمية في خطاب الشاعر عن غزة.

الخاتمة:

عرض البحث لتجليات الوطن في ديوان "مملكة اليمام"، حيث تتبّع الفضاء الموضوعي في الديوان، وما يجلبه من تقنيات أسلوبية كاللتناس، والرمز، والاستحضار، وخلص إلى ما يأتي:

أولاً: ثمة ارتباط وثيق بين عنوان الديوان وموضوعاته، وبذلك أسى العنوان الشيفرة الأولى التي توجي بالمضمون، وقد عبّر عن مدلولات الديوان باختصار.

ثانياً: ما زالت قضايا الوطن تشكل الشغل الشاغل للشاعر الفلسطيني لا سيّما في الفترة الأخيرة، بل نجح الشاعر في نقلها في خطابه من بعدها الفلسطيني إلى بعدها القومي والديني، موظفاً أحداث التاريخ، ومدغداً مشاعر المسلمين بما اتكأ عليه من تناص ديني، واستحضار للشخصيات التاريخية.

ثالثاً: شكّلت قضايا القدس، واللجوء، والشَّهيد، وغزّة محاور مهمّة في قصائد الديوان وهي بذلك تشكّل مملكة اليمام عنوان الديوان. رابعاً: وظّف الشاعر جملة من التّقنيات الفنّية ساهمت في تجلية المعنى وتوضيحه، وساعدت المتلقي في المشاركة الوجدانيّة، ومنها: التّناس، والاستحضار، والرّمز،... وهذه التّقنيات تدلّ على قدرة إبداعية ذكيّة لدى الشّاعر، ولها دلالات إيحائيّة عميقة. خامساً: لا يزال شعر المقاومة حيّاً يبيّث الأمل، وهو وسيلة فاعلة في المواجهة، واستنهاض الهمم. ومن المفيد جدّاً تتبّع الأعمال الشّعريّة الأخرى للشّاعر، وإجراء مقارنة تبرز مدى التّطوّر الإبداعي له، والوقوف عند التّقنيات الفنّية التي تؤدي دوراً مهمّاً في حمل ما يرنو الشّاعر إليه، والموازنة في توظيفها لديه عبر مراحل الشّعريّة المختلفة؛ لإظهار تطوّر الخطاب الشّعري لدى الشّاعر.

المراجع:

- القرآن الكريم، (سورة الإسراء: ١، وسورة الرحمن: ١٣)
- ١. أشبهون، ع، (٢٠١١) العنوان في الرواية العربيّة، دمشق، دار المنيا والمحاكاة، ص ٦٩.
- ٢. حامد، ع، (٢٠٠٣) أعشاب القيد والقصيدة (التجربة الشّعريّة عند المتوكل طه)، عكا، مؤسسة الأسوار، ص ٥٣-٥٤.
- ٣. الدّباع، م، (٢٠٠٣) بلادنا فلسطين (في الديار اليافية) ط ٢، بيروت، دار الهدى، ٤/٥٢٤.
- ٤. أبو سلعى، ع، (١٩٦٣) المشرّد. عكا، دار الأسوار، ص ٦٩.
- ٥. شرّاب، م، (١٩٩٥) بيت المقدس والمسجد الأقصى ودراسة تاريخيّة موثقة، دن، ص ٨٤.
- ٦. الشّعر، أ، (٢٠١٢) توظيف التّراث في الشّعر الفلسطيني المعاصر، عمان، مطبعة السفير، ص ٩١.
- ٧. طه، م، (١٩٩٢) رغبة السّؤال. القدس، دار الكاتب، ص ٦٩.
- ٨. طه، م، (٢٠١٥) مملكة اليمام. عمان ورام الله، دار الشروق، ص ١١-١٩، ٢١، ٢٣، ٢٨، ٢٩، ٣١، ٦٩، ٨٠، ٨٦-٩٧، ١٠٠-١٠٢، ١١٣-١١٦، ١١٩، ١٢١، ١٢٣-١٢٥، ١٣٠-١٣٧، ١٥١-١٥٨، ١٦١، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٨، ٢٢١.
- ٩. طوقان، إ، (١٩٩٠) ديوان إبراهيم طوقان. بيروت، دار الشروق الجديد، ص ٣٨.
- ١٠. عبد المهدي، ع، (١٩٨٩) بيت المقدس في شعر الحروب الصليبيّة. عمان، دار البشير، ص ١١٨، ١٦٢.
- ١١. أبو عمّشة، ع، (١٩٩٥) دراسة في شعر المتوكل طه، مجلة جامعة النّجاح الوطنيّة ٣ (٩)، الصفحات ١٨٧-٢٣٦.
- ١٢. عودة، ف، (٢٠١٣) الشّاعر الفلسطيني المتوكل طه نزال. في ياسين كتاني (محرر)، موسوعة أبحاث ودراسات في الأدب الفلسطيني (٤٢٧-٤٥٧)، باقة الغربيّة: أكاديمية القاسمي، ص ٤٢٧-٤٥٧.
- ١٣. قسم اللغة العربيّة في جامعة الأقصى (٢٠١٠). الأدب الفلسطيني: تاريخه وفنونه وأغراضه واتجاهاته. غزّة، دار القادسية، ص ١٠٢.
- ١٤. كلاب، م، (٢٠١٧) ظواهر سيميائيّة في شعر الأسرى الفلسطينيين، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانيّة غزّة ٢٥ (٢)، ص ١٥-١.
- ١٥. مفتاح، م، (١٩٨٥) استراتيجيّة التّناس، بيروت والدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ص ٢٦٣.
- ١٦. واصل، ع، (٢٠١٠) التّناس التراثي في الشّعر العربي. عمان، دار غيداء، ص ٧١.

Aspects of Homeland in Dewan Mamlaket Alymam for Al-Motawakel Taha

Khamees Ahmad Rayyan

Ministry Of Education- Ramallah- Palestine
 Birzeit University- Palestine
 khrayyan69@gmail.com

Abstract: This research aims at showing up the issues of homeland which the poet expressed in his poetry (his Dewan) for making sure that homeland is still the main concern in the Palestinian poetic speech at a time of changes taking place all around the world, affecting the Palestinian issue.

The research is based on taking the poetic text and then analyzing it, depending on the descriptive approach which reads the texts and then analyze them. The study employs the analytical approach and its techniques such as intertextual, employment of historical figures and semiotics in the connection between the title and the subjects. The poet included the Palestinian personality through highlighting different issues of Palestinian homeland: Al-Quds (Jerusalem), Refuge (Diaspora), Martyrdom and Gaza which has been exposed to destructive wars during the past few years; in which it created a painful bleeding wound in the body of Palestinian homeland.

The study concluded that there is a strong connection between the title, which is regarded as the code, and the Dewan's subjects related to the Palestinian homeland, and the idea that the homeland is still the most dominant in the Palestinian poetic speech. Moreover, the poet was able to employ stylistic techniques that exploded implications that the poet wanted to convey in his poems to his readers to make them take part in emotionally.

Keywords: *aspects of homeland; Al-quds (Jerusalem); refuge (Diaspora); Martyrdom; intertextuality*

References:

- Alqrān Alkrym, (Swrī AlāSra': 1, Wswrī Alrḥmn:13)
- [1] 'bd Almhdy. ', Byt Almqds Fy Sh'r Alhrwb Alshlybyh, 'man, Dar Albsḥyr, (1989), pp.118, 162.
- [2] Ābw 'mshh. ', Drasī Fy Sh'r Almtwkl Ṭh, Mjlī Jam'ī Alñjah Alwtnyī3 (9), (1995), pp.187-236.
- [3] 'wdh. F, Alshā'r Alflstyny Almtwkl Ṭh Nžal. Fy Yāsın Ktany(Mḥrr), Mwsw'ī Ābhath Wdrasat Fy Alādb Alflstyny (427-457), Baqī Alghrbyh: Ākādymy Alqasmy, (2013), pp.427-457.
- [4] Āshbhwn. ', Al'nwan Fy Alrwayh Al'rbyh, Dmshq, Dar Almnaya Walmhakah, pp. 69, (2011)

- [5] Aldbāgh. M, Bładnā Flstyn (Fy Aldyar Alyafyh) T2, Byrwt, Dar Alhdy, (2003) 4/524.
- [6] Hamd. ' , Ā'shab Alqyd Walqsydh (Altjrbh Alsħ'rŷh 'nd Almtwkl Th). 'ka, Mwssġ Alāswar, (2003), S27, 53-54.
- [7] Klab. M, Zwahr Symyaŷŷġ Fy Sh'r Alāsry Alflstynyyn, Mjlġ Aljam'h Alāslamyh Llbhwtħ Alānsanyh Ghŷa 25 (2), (2017), pp. 1-15.
- [8] Mftah. M, Astryjŷġ Alŷnaš, Byrwt Waldar Albyda', Almrkz Althqafy Al'rby, (1985), pp. 263.
- [9] Qsm Allghh Al'rbŷh Fy Jam'ġ Alāqsa, Alādb Alflstyny, Tarykhħ Wfnwnh Waghrađħ Watjahath. Ghŷa, Dar Alqadsy, (2010), pp.102.
- [10] Alsħ'r. Ā, Twzyf Altrath Fy Alsħ'r Alflstyny Alm'ašr, 'man, Mtb'ġ Alsŷr, (2012), pp.91.
- [11] Shrab. M, Byt Almqds W Almsjd Alāqsa Wdrasġ Tarykhŷh Mwthqh, D.N, (1995), pp.84.
- [12] Abw Slma. ' , Almsħrd. 'ka, Dar Alāswar, (1963), pp.6.
- [13] Taha. M, Mmlkġ Alymam. 'man Wram Allh, Dar Alshrwq, (2015), pp. 11-19, 21, 23, 28, 29, 31, 69, 80, 86-97, 100-102, 113-116, 119, 121, 123-125, 130-137, 151-158, 161, 207, 209, 214, 215, 218, 221.
- [14] Taha. M, Rghwġ Alšwal. Alqds, Dar Alkatb, (1992), pp. 69.
- [15] Twqan. Ā, Dywan ABrahym Twqan. Byrwt, Dar Alshrwq Aljdyd, (1990), pp.38.
- [16] Wašl. ' , Alŷnaš Altrath Fy Alsħ'r Al'rby. 'man, Dar Ghŷda', (2010), pp. 71.